الواقع والمتخيل

والمحتمل

في الرواية العربية

سعيد علوش

(١) نتساءل في بداية هذه المداخلة عن دلالة الواقع الروائي الذي نعنيه. وبدون أن نسقط في استعراض تاريخي أو استطرادات أكاديمية، يمكن القول ان الواقع المقصود هنا غير الواقع الخارجي، ي أنه الواقع الرمزي الذي يقابل الواقع المادي.

(٢) والحق ان مائة سنة من الممارسات الروائية والنقدية العربية لم تعفِ (القارىء المتوهم) من الملابسات والتناقضات المفهومية التي تحول بينه وبين قيام (تقليد أدبي) معين يسمح بموضعة (الإبداع الروائي) داخل (الإنتاج الثقافي) السائد.

(٣) لقد نعتت رواية (الأرض) لعبد الرحمن الشرقاوي بأنها واقعية لايهامها بواقع خصوصي. واستشاطت نقاشات خلال الستينات عن نوع من (الواقعية الاشتراكية) و(الالتزام) كعلامات على طريق (عكس الواقع) مرة و(محاكاته) مرة أخرى. إلا أن الالتباس لم يرتفع وظلت الكتابات الايديولوجية- بطلة الحلبة طوال الفترة الناصرية والبعثية- تراهن على مزايدات أدبية، أصيبت بانتكاسة ٥ يونيو، ولكنها اكتسبت أنفاساً أخرى مع المتغيرات العربية سلباً وإيجاباً.

(٤) وبقيت (صورة الواقع) ضبابية أو وجودية أو شبه- واقعية. لأن أحداً لم يفكر في رسم الحدود الفاصلة بين العالم الروائي بإيهامياته، والعالم الخارجي بتسطحه. لقد امتزجت صور الايهامي بالحادث لحد توحدهما في شكل من أشكال المباشرة والتحايل على الشكل الروائي عن طريق دمجه في الخطاب اليومي أو التسجيلية المفرطة.

(٥) ويمكن القول إن ظهور (الوعي الوطني) بالعالم العربي، افرز انتاجات روائية تاريخية تؤكد أساساً على وقائع معينة، احتلت (حركات الاستقلال) و(التأصيل) و(الوعي الحضاري) حجما كبيراً داخلها.

وعبر هذا النوع التاريخي كانت الرواية تستمد سلطتها الإبداعية باسم واقعية ومعايشة وقائع تنزع نحو التكديس في التحام مع الوعي السائد في أغلب الحالات والمعاكس في أقلها.

(٦) لقد كان السرد الحكائي المحور الأساسي لهذا الإنتاج كعلامة على طريق توقّعت أن يستلهم نموذجه المثالي من (مخيلة سياسي) و (شكل كلاسيكي) لاقى إقبالاً من طرف جمهور يخضع لإغراءات خبر روائي تركيبي يتكىء على معلومات (قارىء متوهم) بحجم الواقع الصغير لبيئة تنبهر وتحدّث ببطء.

(٧) ولقد ساعدت على ترسخ (الصورة الخاطئة) لمفهوم (واقع التوحد) بين (سلطة الرمز الروائي) و(سلطة الأشكال الخارجية) هذه التبعية التي ابداها كل من الروائي والناقد معاً للدور التعليمي والأخلاقي الذي لا يراعي حدود الأنواع وقوالب تشكل (الأفكار التجريدية) التي تحدِّد الشخصيات والمواقف والفضاءات.

(٨) إننا لا ننصب من أنفسنا حكام (الشروط الروائية)، كما لا نقضي بغياب مطلق (للإرهاصات الفردية) الجادة لأن ما

يهمنا أساساً هو الاتجاهات والتيارات المحددة الرؤية والخاضعة لقانون ادبي يمتد عبر الأجيال ويحقق (استمرارية مراحلية). لأن ما هو حاصل الآن يدخل في إطار التبني لتعريفات وظواهر تخضع لإسقاطات وموضات خارجية في غياب تقليد أدبي مما يسمح (بواقعية ملصقات) حائطية أو (لافتات للمزايدات الأدبية) التي لا يعززها (واقع الرمز الروائي) ولا (واقع البنيات التحتية) وهي الحالة التي يطلق عليها رودانسون (صوفية يسار العالم الثالث).

(٩) إن خصوصية (الواقع الوطني) لتغطي على كل (واقع قومي) بالرغم من مئات العناوين التي تحمل (دراسات في الواقع الروائي العربي) و(الواقعية في الأدب العربي) التي صدرت في اغلبهاعن شرق هو إما (مصر) أو (سوريا) أو (لبنان) وكان الأولى ان يشار إلى (الوطنيات الروائية) بدل تسميات لا تحمل دلالة مسمياتها مما يفرغ جل هذه الأعمال من الصبغة الجدّية، إذ طوال عقود وغياب (المغرب العربي) مثلاً لا يقدم الدارس الشرقي اشارات لا في (تاريخ الأدب) ولا في (الإنتاج الروائي) ولا في (النقد الروائي).

(١٠) واستقراء بسيط للواقع بالرواية العربية يكشف عن نزوع الأخيرة إلى استلهام بطولة (شخصيات تاريخية) بعينها، أو وصف (وقائع تاريخية) تأكد ترسخها بالوجدان العام أو التركيز على (فضاءات ذات حساسية) خاصة وإلى هذا الحد والاستلهام لا يثير ادنى تناقض لا عند (جيل جورجي زيدان) أو(جيل نجيب محفوظ) أو(جيل عبد الرحمن منيف).

(١١) وإذا كان الواقع (تاريخاً) عند جورجي زيدان.

والواقع (اجتماعياً) عند نجيب محفوظ.

فالواقع (سياسي) عند عبد الرحمن منيف.

ومن هنا فمنطقة الجاذبية تلتحم (بالواقع الايديولوجي) العام والذي وجه (واقع النهضة) التحديثية عن العرب.

(١٢) إلا أن الإشكالية ليست في كيفية تصنيف (واقع الأجيال)، ولكن في الكيفية التي عبرت عنها والأدوات الموظفة والرؤى الحياتية والمتطورة، لأن كل روائي يحمل واقعيته الخاصة، وليس هذا هو جوهر الإشكالية، لأن التعبير عن الواقعية هو ما يحدد (الواقع الرمزي بالرواية).

(١٣) واقع الوعي الوطني: لقد ارتبطت الرواية العربية بظاهرة من النادر جداً ان تخرج عنها، وهي هذا التوازي في ملاحقة (الواقع المادي) باشكال تعبيرية مباشرة أو بمطابقة لا تخلو من تسجيلية كما لو كانت مهمتها الأساسية هي تحويل المتغيرات إلى ثوابت داخل متحفية السرد الروائي، وكما لو كان الانتصار على الواقع هو في محاصرته، وتقديمه في شكل وصفة أدبية قارة.

(١٤) والحق ان ما كان مطروحاً هو (واقع الانفلات) من (واقع الوصف) إلى (واقع ساخر) لا ينسخ، ولكنه يثوّر ويشكّل.

لقد أصبح من البديهيات ان نصادف داخل كل وطن عربي تركيزاً غربياً على (واقع الاستعمار) الإنجليزي أو الفرنسي، كما أصبح من البديهي ان نصادف (واقع البطل) العربي مقموعاً و(واقع البطل) الاستعماري قامعاً كما ان (واقع الأحداث) هو في صالح المواطن وليس ضده، والنهايات هي خواتم تحرر انتصرت فيه كل الطبقات بدون تناقض.

(١٥) وثلاثية نجيب محفوظ بمصر.

وثلاثية المختار جنات بتونس.

وأعمال حنامينة بسوريا تدخل كلها في إطار هذا الرصد، واقع الوعي الوطني مع تفاوت درجات فنّيتها وبراعتها عند حنامينة ورداءتها عند المختار جنات، وتواضعها عند نجيب محفوظ.

(١٦) واقع الوعي الحضاري: بما ان (الممارسات الروائية) غير معزولة عن باقي الإنتاج الروائي العالمي العام بطريقة أو بأخرى، فالتساؤل عن علاقات الأنا (العربي) بالآخر (الغربي) تكاد تتلاحق بمستويات مختلفة منذ (عصفور من الشرق) إلى (قنديل أم هاشم) إلى (الحي اللاتيني) فـ(موسم الهجرة إلى الشمال) كأنضج وعي يطرح أنا (التحدي) في مقابل أنا (الانبهارات) التي عبرت عنها الروايات السابقة.

(١٧) وقد عزز النقد الروائي هذا (الوعي الحضاري) عن طريق ربط الإنتاج الروائي بمذاهب ربط فيها الوجودية (بالسمان والخريف) والسوريالية في (يا طالع الشجرة) والرومانسية برواية (زينب) والكلاسيكية (بجورجي) وأخيراً الرواية الجديدة كما اعلن عنها بعض الروائيين.

(١٨) واقع الوعي بالصراع الايديولوجي: وهو ما نجده عند (عبد الرحمن الربيعي) و(عبد الرحمن منيف) وقد حاولا ان يعطياه تسمية (الرواية السياسية) أي بعداً أكبر مما يعبر عنه. إلا أن السمات العامة لهذه الرواية وكما ظهرت في الجزائر مع رواية (اللاز) للطاهروطار وفي فلسطين برواية (الصبار) عند سحر خليفة تؤكد على نزعة بث (الخبر الايديولوجي) كواقع جديد، يأتي نتيجة الاختيارات والتناقضات السياسية التي تعتمل في قلب عالم عربي ما بعد هزيمة يوليو مع خصوصيات كل وطنية.

(١٩) المتخيل: إن ما يتخيله الروائي لهو عالم موجود، أي ان المتخيل قائم بالواقع المادي، ولا يخرج عنه حتى في حالات الهلوسة والهذيان المحموم. إننا نتخيل بالأبيض والأسود كما نتخيل بالألوان، ونحن مشروطون بالمعطيات الخارجية، حتى في الحالات الشاذة إذا لم يقع تخيل احد منّا أشياء غير موجودة حتى في حالات الكتابات الروائية المستقبلة.

(٢٠) البطل الإشكالي، وإذا كان النظام الليبيرالي اقتصادياً أو ثقافياً يطبع كل نشاطات العالم العربي، فقد مكن هذا المزاج البطل الروائي العربي من ان يظهر كبطل اشكالي يعبر عن توحد المثقف الذي يثقف كل ما يقع عليه لمسه لحد ان

الإحساس بالرواية الثقافية لا يفارقنا خلال كل قراءة إذ لا مجال لرواية ميدانية تتحدث من داخل ولا تلون بالخارج الفردي لتجربة مثقف متوحد.

(٢١) والبطل الروائي العربي من هنا مثقف متوحد مهما تعلمن أو تفلحن أو تبتلر، وقد تظهر هذه الملاحظات كاسقاطات، لأنها تضع جميع الإنتاج في قفص واحد، إلا أننا لسنا بصدد الحديث عن الاستثناءات أو الحالات المنفردة، بل عن تجربة عربية ككل انطلاقاً من نوع ومن تشكل الفكرة- البطل لأننا لا نستطيع الحديث عن (جان فلجان) رواية عربية- أو (مدام بوفاري) رواية عربية أو (الإخوان كارامازوف) الرواية العربية، بقدر ما نعثر على شخصيات من جليد لا تلبث ان تذوب مع نهاية كل رواية.

(٢٢) الرواية والروائية: ولعل كل ما سبق يدفعنا إلى التساؤل عن الرواية والروائية في العالم العربي. لقد قطعت الرواية أشواطاً بعيدة على مستوى الكم وترسخت بأذهاننا اسماء بعينها ولم تعد تذكر الرواية إلا ويعود بنا التفكير إلى مجموعة من الأسماء كعلامات على الطريق الإبداعي الطويل، بكل اشكالياته الاجتماعية والتاريخية والسياسية: أي ان الشكل الكلاسيكي تحقق بمستويات مختلفة، مما يدفع إلى التساؤل عن حظ الروائية بالرواية.

ولا أحد طرح حتى الآن قضية الروائية بالرواية العربية مع اهميتها في التمييز ما بين النوع الأدبي كمهنة أدبية والكتابة الأدبية كتمييز اجتماعي.

(٢٣) والواقع ان أي حديث عن الروائية لا يمكن أن يتم إلا في حدود وجود روائيين تكونت لهم حصيلة من التجارب والآفاق داخل (حقل مفهومي) معين يمكن أن يكون هو (الاستيعاب) كشيء لا يمكن ان يتم إلا إذا توفرت للروائي مجموعة من المعطيات النظرية والمنهجية تتحقق في (الروائية) أو (العضوية).

(٢٤) وفي منظورنا لا يمكن أن تتحقق الروائية إلا في التوزيع المتكافىء والمتناقض والتحويلي لأجزاء الخطابات الاجتماعية داخل اللغة المعنية وبلغات متعددة المستويات الايديولوجية والتاريخية والفلسفية.

إن ما يقع حالياً لهو تكون أسلوب أدبي معين، حيث تطرح به أحداث معينة، لحد التساؤل عن الفوارق بين روايات (الكرنك) و(السيد المحترم) و(الحرافيش) لنجيب محفوظ ولحد ان النقاد اخذوا يرددون تجاوزية هذا الأخير ونهايته.

(٢٥) الأسلوب والأسلوبية: والواقع أنه لم توجد معالجة دقيقة قبل القرن ٢٠ لمشاكل أسلوبية الرواية القائمة على الأصالة الأسلوبية للخطاب بالنثر الأدبي، ووقع الاهتمام باستعارية تعبيرية ووضوحية واحكام قيمية وملاحظات ظرفية اكثر من أي اعتماد على الخطاب الأدبي كضرب من الوسط (الخارج- أدبي) والذي لم يحظَ بأي انجاز خاص وأصيل لأن كل محاولات التحليل الأسلوبية الملموسة للنثر الروائي ضاعت في الوضعية اللسانية للغة الروائي أو انحصرت في تقديم عناصر الأسلوبية المعزولة.

(٢٦) واقتصر التعامل على (حمولة- أدبية) تظهر بالحديث العام كوسيلة بسيطة للتواصل في شبه حياد تام عن الفن.

وبتغير الوضعية خلال العشرينات، أخذ الخطاب الروائي النثري يحتل مكانته بالأسلوبية.

(٢٧) وظهر الاهتمام بالرواية ككل في شكل ظاهرة متعددة- الأسلوبية، متعددة- اللغات، متعددة- الأصوات. وأمكن من هنا (ميخائيل باختين)، استعراض أهم نماذج الوحدات المكونة والأسلوبية والمشكلة عادة لمختلف اجزاء المجموع الروائي كالتالي:

(١) السرد المباشر والأدبي في مختلف تشكلاته.

(٢) أسلبة مختلف الأشكال السردية الشفوية التقليدية او الحكائية المكتوبة.

(٣) أسلبة مختلف اشكال السرد المكتوب والشبه- أدبي والسائد رسائل/ يوميات خاصة الخ.

(٤) أسلبة مختلف الأشكال الأدبية، والتي لا تتصل بالفن الأدبي وبخطاب الكاتب: كتابات اخلاقية/ فلسفية/ استطراد علمي/ تفخيم بلاغي/ وصف اثنوغرافي/ ملخصات... الخ.

(٥) أسلبة خطاب الشخصيات، والخطاب الفردي.

(٢٨) ويقدم (ميخائيل باختين) هذه الوحدات المختلفة كتراكم داخل الرواية على ان يصبح من مهامه تكوين نظام ادبي متناسق، ومن ثم يصبح اسلوب الرواية التحاماً للأساليب، وتصبح لغة الرواية نظاماً للغات.

(٢٩) المحتمل: والمحتمل في الرواية العربية هي ان تحقق هذا (التنوع الاجتماعي للغات، وللكلام وللأصوات الفردية على أساس تحقق عضوية أدبية).

وتتطلب هذه (المعطيات الضرورية من اللغة الوطنية والقومية ان تتفرع الى لهجات اجتماعية.

- تقمص الجماعة.
- حرفية.
- لغة الأنواع.
- أحاديث الاجيال/ الأعمار/ المدارس/ السلط/ الحلقات/ الأنماط العابرة.
- اللغة اليومية/ الظرفية/ الاجواء/ السياسية.

على ان يحقق الخطاب الروائي بتنوعاته وتناقضاته وحدات مكونة للأساس الذي يسمح لتعدد لغوي من ان يدخل الروائية ومن هنا (تنتظم الأصوات الاجتماعية والتاريخية التي تتقمص اللغة (بكل مفرداتها واشكالها) التي تمنحها دلالات ملموسة ودقيقة بالرواية في ائتلاف اسلوبي منسق، يعبر عن الوضعيات السوسيو- ايديولوجية المختلفة للكاتب في قلب التعدد اللغوي لعصره).